الغربة في شارع كيف الزحام

قصة بقلم صلاح عيسى

١ ـ ظلال شاحبة في مطبعة سيئة السمعة

ما اطول الطريق . ما اخنق زحامه . ان تبدأ رحلة بلا سبب أو هدف ، ذلك هو العذاب . تبحث العين عن لحظة فراغ تسرح فيها فلا تجد . كتل البشر جدران صماء . وتحلم مرة أخرى بالفراغ السعيد، فمتى يكف القلب عن الحلم ؟ كفانا ما حصدنا من هشيم . تأمل هؤلاء الناس . كم كان السير وسط مواكبهم يوما نشوة القلب والروح ، احب من الحياة ، اشهى من القبل . ويقول انسان قديم يحتضر داخلك : ذاك كان زمن ومضى ، ويقول رأسك التائه ابدا بخدر المنوم : حتام تعود قدماك المنهكتان بقبض الريح ؟ نكب العمر بالاحلام . وليكن لنا في راحة اليأس ملجأ في زمن عزت فيه الملاجىء .

بيد ان القلب يخون رغبتك في راحة اليأس . ويقود الاقدام المنهكة مع هذا الصديق القديم . الى أين ؟ لا تدري . فلنسر دون سؤال . ويوما قرأت ان عذاب الانسان قد بدأ بسؤال . وعشت تعشق علامات الاستفهام . والرحلة بدأت مغربة ، وها هي تتحول الى عذاب . وهو يستحث أشواقك الخامدة للمجهول . لنصبر قليلا ، فربما جاد الزمن بلحظة مسرة تعوض القلب ما يعانيه من خيبة .

كنت قد حفظت صديقي كما احفظ جدول الضرب ، ونشيد بلادي بلادي .. ولون عيني زوجتي : ٧ × ٩ = ٦٣ ، ٨ × ٨ = ٦٤ ، ٤ × ٤ = ١٦ . بلادي . بلادي . لك حبي وفؤادي . مصر يا أم البلاد. انت غايتي والمراد . وعلى كل العباد . كم لنيلك من أيادي . عينا زوجتي واسعتان . سنجابيتا اللون . انسانهما أزرق كسطح بحر في مقلة شمس . بياضهما ناصع .. في لحظات الكدر تشوبه عكارة كالرماد. صديقي « صابر سعيد عبد السلام الكرداني » ، احفظه منذ خمسة عشر عاما . عمر عذراء صغيرة كالبنت الساكنة امامي . عرفته ضاحكا وعابسا. عاشقا وزوجا . سجينا وطليقا . مريضا يمزق السعال صدره . منديله الابيض يعود مبرقعا ببقع دم احمر قان . حكى قصة غرامه . قصيرة كالقزم كانت قصته . نظرة فابتسامة فكلام ففرام فسجن ففراق . مررنا معا بين صفين من العساكر . تتحرك عصيهم الغليظة فتهوي علينا . ضخما كان . طويلا عريضا . وجهه طفولي . كذلك قلبه . يوم ماتت امه بكى . اكره البكاء في الزحام . احبه في سكون الوحدة . انحنيت يومها عليه . قلت :

ـ تتهمني بما تعرف ، وها انت متلبس بلحظة ميتافيزيقية .

ابتسم ابتسامة محزون قديم . قال :

ـ ولكن العين تدمع .. والقلب يحزن ..

وتلا المقرىء « أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » . قلت : نحن عراة تماما فاين زمن البروج المشيدة ؟ حائط واحد نستتر به يا أولاد الكلب . الرصاص ينطلق وما من ساتر ، والصواعق تسقط وما من مانع . السيارات سارحة مسرعة . تدهمنا . تقضي علينا . لحظة أمان واحدة ، ذهب زمن النوم المريح . ومن الذي نبهك يوما الى ان كلمة « قرير العين » لم تعد تستخدم . صديق في المجمع اللغوي ؟ أظن . فكرت أن أقوم .. امشي في الشارع . اسمي نفسي « عمر قرير العين الدهشان » ، أحمل جردل بوية بيضاء . فرشاة ضخمة . على ارض الشارع اكتب . على حائط السينما اكتب : « أريد أن أنام قرير العين » ، « عاش النوم بلا كوابيس » ، « يسقط بعوض الانوفليس وذباب التسي تسي » . قرأ المقرىء : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا . وأولئك هم المتقون » . أغمضت عيني . قلت انني في حاجة الى حبة من منومي المفضل . رؤوس مليئة بالهمّ وعيون أذبلها البكاء . شهوات منطلقة بلا رقيب . جرائم تدبر وما من مراقب . ومخبر يسرح وراء فكرة خيِّرة . لافتات مرهقة . كوفي . رقعي . فارسي. نسخ . فليكن لي لافتة . يد تخبط ردفا سارحا كقبة ولي . ومرفق يحتك بنهد لم يعرف عبث العابثين بعد . خبز فوق دراجة يحمله بهلوان يخترق الزحام . أفواه زاعقة تعرض بضاعة وما من مشتر . اتفاق على ليلة غرام في ركن . شيخ يبحث عن مسجد نذر ان يصلي به . صديقي يعابث فكرته الغريبة . يوما سألني وها هو يعيد السؤال :

ـ هل طبعت لنفسك بطاقة زيارة ؟

نفيت ذلك دهشا . قال :

ـ هذا خطأ جسيم .. يجب ان تكون لك بطاقة .. كارد فيزيت.

ضحكت . شقنا الزحام نصفين . اختفى عن عيني . (تلك البنت الساكنة امامي في خطر . لو أملك الشجاعة كي أحذرها . تلعب بالنار . ولكن ما شأني . ليلة قلقة . فشل المنوم . وقفة حائرة في الشرفة . آه طفلة صغيرة تقفز الى شرفة رجل في ظلام الليل . اختفيا في الداخل . ظللت واقفا حتى عادت . ذلك النهد البكر ، لم يتعد عامه الثالث . كيف تعصره في الظلمة كف سفاحة ؟ هل تملك الجنون لتصرخ محتجا ؟) .

فجأة وجدت صابر الى جواري . قال :

ـ لا أحد من هؤلاء له بطاقة .

فكرت في ان المنوم الذي آخذه فقد مفعوله . (بدانا بالليبريوم ١٠ ملليغرام ، ثم الليبريون ٢٠ ملليغرام . حبة صفراء صغيرة . تحت اللسان تدور . يد رحيمة تتسلل تحت الجلد . تمسح الاعصاب. تهدهدها . يبدو النوم قريبا . يختفي ذباب التسي ـ تسي . تموت على سطح الزجاج بعوضة انوفليس حقيرة . اتثاءب . أضع رأسي تحت الوسادة . أنام . انتهينا بالفاليوم . حبة بيضاء سميكة . وكوب لبن ساخن في اثرها . ضحك في الحجاب الحاجز تكسل الحنجرة عن النطق به . ابتسامة بلهاء . ليذهب كل شيء الى الجحيم. الماضي والحاضر والمستقبل . ملعون في كل كتاب : الحزن والقلق والخوف . بدانا بالليبريوم ١٠ ملليغرام في سجن القناطر سنة ١٩٤٩ وانتهينا بالفاليوم وكوب اللبن الساخن ونوال جلال الدين في ١٠ ديسمبر ١٩٦٦ . تصفيق حاد) .

عاد صابر من كثافة الزحام :

ـ اين انت يا رجل .. ما رايك في موضوع البطاقة ؟

ـ معي بطاقة عائلية فيها اسم زوجتي وابنتي . فكرت في الغائها. خفت ان ينقص مقررنا من السكر والزيت .

ضحك . ضحكته عالية كطفل يكره الاصول . وضع ذراعه في ذراعي . (امس عاتبتني زوجتي . عندما نسير معا لا اضع ذراعي في ذراعها . عجبت لانها تهتم بذلك . قالت : انت ما عدت تحبني . قلت : لسنا اطفالا صغارا . عاتبتني بسمتها . سرح الكدر رماديا في بياض عينها الناصع . قالت : لم نكن يوما صغارا ، وكنت لا تترك يدي ، لا يخف ضغطك عليها بل يزداد ، فماذا حدث ؟ عذابنا بدا بعلامة استفهام . نشوتنا بدات بها ايضا . كاسفا قلت : الدنيا حر.. أخشى أن تعرق كفي على ذراعك) .

ها هو ظلي يسير الى جواري . ترحل الشمس الآن وتولد في الصباح . نحن نرحل دون أن نولد . ذلك الظل من لي بتحديد مثل تحديده ؟ وكيف يتأتى أن تكون له هذه الخطوط الحادة ؟ خلاياي لا يجمعها شيء . قال :

ولكنك لا تستطيع ان تلغي بطاقتك العائلية ؟

ضربني واحد بكتفه وهو يسابر . دهشت لان لي كتفا . تحسسته فرحا بوجوده . قلت :

ـ ما معنى ان تكون لك بطاقة ، فيها اسمك وتاريخ ميلادك وبصمتك ؟ هذا شيء سخيف جدا .

سعل سعلة أطول من المعتاد فعاودني القلق القديم . قلت ان رحمة ادركته قبل أن يقضي عليه الداء . والى متى يحتمل صدره العليل معاناة الحياة ؟ ها هو يبدو قويا يدب فوق الارض بعنف . كأن الموت لم يسكن صدره شهورا طويلة . شاهد على ان الحياة قاهرة الفناء منذ القدم . لكن محكمتك لا تؤمن الا بشهود الزور . (بالقرب من القلب الطيب اختبأت يوما متفجرات الموت . سهر أكثر من طبيب يتعهد الحالة بقلق . يومها شممت رائحة الموت . ما أتعس أن تموت غريبا دون أن تنوح عليك امرأة ، يتفجر قلبها بصراخ الاحتياج : يا سبعي .. يا ضبعي يا حارق مهجتي . في الغربة تموت. لست سبعا ولا ضبعا . تبتل فرحا صدور الكلاب ، يصيحون : مبروك، انتهينا من واحد منهم .. العقبى لمن بقي . في فناء السجن عقدت اجتماعات سريعة . تحت نظر الحراس تبادلنا الكلام همسا . ونحن في الجبل يوما قال واحد بجواري :

ـ سنكون كلابا اذا صمتنا . لا بد من نقله الى المصحة .

تحدث واحد عن العقل . قال آخر ضاحكا : وقعنا في يد من لا يخافه ولا يرحمنا . ثبت « حلمي » نظارته الطبية بعد أن انزلقت بالعرق . قال : كطبيب اصرح انني لا اضمن حياته اذا لم ينقل الى المصحة . عاد يمسح نظارته من تراب الجبل . رفع « الازمة » هوى بها على الحجر الصلد . حملت « القطف » على ظهري لاعود بالحجارة المتكسرة . قال :

ـ امس منعوني من الدخول اليه . يريدون اخفاء حقيقة المرضى عنا .

قلت : نناقش الامر في المساء وما يتفق عليه ينفذ .

في الظهيرة خرجت لاعود بالغذاء . الارض رمال ساخنة . قدمي العارية تدوس حصى كالجمر . لا نسمة هواء . قطة برية تنهش لحم عصفور نتن الرائحة امام باب المشرحة . ذباب دائخ بالجو الخانق يطير في سرعة هيستيرية . نظرت داخل المشرحة عبر خصاص نافذتها. كانت مظلمة مليئة بأسرّة قديمة . ارتجف جسدي فجاة برعب خانق . سكن القلب هم مقيم . تركت الدلو أمام باب المستشفى . قال « الشاويش متولي » :

ـ الى أين ؟

ـ عندي اسهال .

نظر مستريبا . قال :

ـ امش عدل ، الى الاجزخانة طوالي ..

وضعت السيجارة في يده . ابتسم ابتسامة لص محترف . قلت انني لن ادخن حتى المساء . لم يبد ذلك مهما لحظتها . لمحت تدهوره السريع قبل ان اصل اليه . خطا ناحلا قد كان . ساقاه رفيعتين كعصوين من البوص . عيناه غائرتان كانهما لا شيء . شاربه الكث يلتهم نصف وجهه . عروق الرقبة بارزة . ما اشره المرض وكنت تبحث دائما عن « أمنا الغولة » كما صورتها حكايات الصبا . فتأمل ما يمكن أن تفعل باللحم الحي . ما كاد يتكلم حتى دهمته نوبة سعال متصل . انتفخت عروق الرقبة ، كادت تنفجر . قلت :

ـ لا تتكلم .

دهمتني رائحة « الديتول » . كرهتها من يومها . أصبحت رمزا للفناء . قال :

ـ لا أمل .. اتسع ثقب الرئة اليمنى .. وليلة امس لم انم لحظة واحدة ..

عاد لهاثه يتزايد . محاولا الابتسام قلت :

ـ لا تكن ثقيل الظل . دور ثلاثة يسلم عليك . وقد طمانني حلمي امس ، فلماذا اليأس ؟

ـ بصاقي كله دم احمر ، والحالة أوشكت على الانتقال للدرجة الثالثة ..

خفق القلب موجعا . صداقة العمر توشك على الانقصاف . لا أمل في أن تسمع أذن صرختنا في هذا المكان الموحش . وسط الكلاب نعيش . من ينجدنا في ظلمات الليالي ؟ لن يبدو هزلا أن تحمل مصباحا وتذهب الى ادارة السجن في عز الظهر . تتشمم وتبحث . فاذا سئلت فلتجب بانك تبحث عن انسان . ستبدو نكتة . لكننا في زمن ضحكه كالبكاء . ابتسم ابتسامة قصيرة . قال :

ـ أكره أن أعذبكم معي .

تزايد الهمس في المساء . جاء واحد من دور ثلاثة يسأل :

ـ الزملاء فوق يسألون عما ستفعلون .

قال « حلمي » متجهما :

ـ في الصباح سنقول لهم .

تأملت وجهه الصلب بأمل . قلت انه يستطيع أن يفعل الكثير . كان عقلا محضا حتى ليخيل اليّ انه لم يعرف البكاء ابدا . وعيناه رغم الزجاج تبدوان كاشفتين ، في وهجهما يستحيل الكذب . قلبوا الامر بحثا وشرحا . كنت منهكا . حملت مئة « مقطف » من الحجارة. كتفي تؤلمني . تابعت المناقشة ساكنا . تحدث حلمي عن تطورات المرض. سأل واحد : أكان مريضا قبل السجن ؟ لعن أكثر من صوت الاسفلت البارد والنوافذ المفتوحة وزمهرير الشتاء . قال آخر : والغطاء المهلهل والغذاء السيىء . وتساءل : ومستشفى السجن ؟ حلمي بصوت حاسم : زفت وقطران . مستشفى بدائي لا يصلح لعلاج الدوسنتاريا فكيف بالدرن ؟ الاسم مرعب . سرحت اثناء المناقشة . الى قريتنا

طرت . اكلت فطيرا وعسلا ابيض مع امي . لبست زوجتي ملسا ريفيا فبدت فاتنة فيه . خرجت الى الشارع تزور بعض القريبات . عدت من قريتي محملا بالغبار وكومة من الهموم . كان القرار يصاغ . قال حلمي :

ـ سأبلغ المأمور غدا اننا سنضرب عن الطعام اذا لم ينقل صابر الى المصحة خلال أسبوع ..

وافق الجميع . تساءل أكثر من صوت : وترتيبات الاضراب ؟.. قال : سيقوم بها عمر الدهشان . صمت لحظة . قال :

ـ أريد تفويضا بأن أتعامل معه حسب الموقف ..

طلبوا توضيحا ، اهتز شاربه الكث :

ـ يعني .. اذا قلّ أدبه أو طالت يده عاملته بالمثل ..

وافقوا بعد مناقشة مرهقة) .

انشق الزحام عن لافتات متشابكة : « حاتي الحرية » . « فطاطري الشهيد الحسيني » . « مكتبة محمد علي صبيح وأولاده » . « الستر » . « الجامعة الازهرية » . قال صابر :

ـ ايها الرجل الفاليومي .. الى أين ذهبت ؟

ـ آه .. كنت أفكر في حلمي .. ستحضر استقبال نوال في المطار غدا !

ـ طبعا .. لا شيء وراءنا . ولكن قبل ذلك يجب أن تكون معنا بطاقات .

وقفنا نشرب عصير قصب . كان غريب الرائحة . ذكرتني لذعته بالخمر الذي كنا نصنعه في السجن . كادت معدتي تنقلب . ما أبشع كل هذا .. قلت :

ـ تتكلم كلاما غير مفهوم ، أرهقتني متابعتك .

ـ انت رجل فاليومي وهذا يكفي .

نفخت ضاحكا ..

ـ لم أعد أستجيب له . وأمس سألت حلمي أن يجد لي بديلا عنه . صاح ساخطا انني أستغله استغلالا سيئا .

ضحك ضحكته الجهورية العالية . نظرت الينا بنت بلد بدهشة . علقت عيني بعينيها . شاقتني حيويتها ودعوة عبث بريء في نظرتها . قال :

ـ ولكن زوجته باعتبار ما سيكون هي المسؤولة عن تحويلك الى الحالة الفاليومية ..

(طولها المنسجم ، نطقها للفظة « البوستيش » ، واللدغة وهي تقول « البيروك » . حكمت زوجتي بانها مدعية وتافهة . التقيت بها أول مرة في عيادته . قدمها قائلا :

ـ مدام نوال جلال الدين . صاحبة معمل لرسم القلب وتحتكر رسم القلب لمرضانا .

التفت اليها قائلا :

ـ وهذا يا ستي « عمر الدهشان » الذي حدثتك عنه .

ابتسمت ابتسامة واسعة . قالت :

ـ روى عنك حلمي الكثير .

ـ خيرا ؟!

ـ الى حد ما .. وهو يقول انك أظرف من يسكر في العالم .

ضحكت قائلا :

ـ غيبة ونميمة لا تصدران الا عن وغد مثله ...

ـ سمعت انك كنت تسكر بعسل أسود مخمر ، فما رأيك في الويسكي ؟

ـ أموت فيه .

قالت وهي تنصرف :

ـ عال .. سانتظرك مع حلمي غدا ..

قال حلمي مصافحا :

ـ ها أنت ترين انه خجول ، والواقع اننا لا نعرف شخصا اسمه عمر .. نعرفه باسم عمر حورية ، نسبة الى زوجته التي لا يسير أحدهما بدون الآخر ..

وجهت الدعوة اليها .. مضت تاركة عبيرا طازجا في الغرفة.. قلت ضاحكا :

ـ يا ابن اللئيمة .. ولماذا لا تشحذ دعوة لزوجتك ؟!

بضحكة عالية .. قال :

ـ دعوت حورية لكي أضمن ألا تنافسني أنت !

هكذا دخلت حياتنا .. ذلك الوجه الآخر من الحياة ، كيف غاب عنا . ها أنت تكتشف جهلك بالكثير من الاشياء . وحتى في عالم النساء تبدو غبيا واحمق . فلنتعلم مرة اخرى كيف نعيش) .

بنبرة ساخرة قال :

ـ سيكون زواجا رائعا .. تعود من بيروت غدا ، بعد أن حصلت على الطلاق من زوجها .

ـ وفي الشهر الماضي طلق زوجته ..

ـ شيء جميل جدا .. الم تفكر في زيارة مطلقته ؟

نفخت بغيظ قائلا :

ـ حورية معها باستمرار .. وعندما راتني أسمعتني كلاما قارصا .. ما ذنبي ؟!

« أنت تعلم انك كاذب .. كان يتدهور يوما بعد يوم وانا معه . لم أفكر يوما في الهاوية التي تفغر فاها لتبتلعه وتبتلعنا . وقلت يوما ان عمل زوجها معروف . فكيف غاب ذلك عن حلمي . سألته . قال :

ـ هذا شيء قديم .. وقد انفصلت عنه ، نحن أبناء اليوم .

لم تقنعني الاجابة . ليلة غاب الويسكي بوعينا . ضحكت كما لم أضحك طول عمري . كدت العب لهم الوسطى لولا لحظة صحو طارئة . ألقيت شعرا حزينا . تحدثت عن فلسفة الحزن وعن أمي التي علمتني ان ابكي وانا بعد طفل . كانت في قميص نوم شفاف تتفجر انوثة وحيوية . صاح حلمي هاتفا بحياة الشعب . ضبطت سكرانا يكذب لاول مرة في حياتي . قالت :

ـ انا حزينة .. اشعر ان صابر يكرهني .. لا يقبل على سهراتنا .

ـ صابر انسان جاد اكثر من اللازم .

ـ .. عملت ضدكم سنوات .. لكني لم أكن اعرفكم ..

كانت الليلة تشجع على البوح . تحدثت كثيرا عما فعلت . استبشعت امعائي ذلك كله . قلت اننا نحتضن جلادينا بكل غباء فماذا حدث ؟. ولماذا فقدنا قدرتنا على المقاومة تماما . وعدت من الحمام ، بعد ان تقيأت كل ما في جوفي وغسلت رأسي . قطعت عودتي مشروع قبله . نحيت وجهي متجاهلا . قالت حزينة :

ـ ومرة علمت ان واحدا من الذين عملت ضدهم قد مات في السجن ، فبدأ عذابي ..

حط علينا الصمت ، يده تحيط بشعرها ، تعاتبه ، استمرت :

ـ وظللت اسبوعا لا انام .. وأصبت بانهيار عصبي كامل ..

طلب منها ان تصمت .. استمرت :

ـ ولولا الفاليوم ما استطعت ان أنام ..

من تلك الليلة عرفت الفاليوم لاول مرة .. فيا للفظاعة .

اشعلت سيجارة . اقتربت محتميا به من سيارة مسرعة . قال:

ـ زرت مطلقته هذا الاسبوع .. رتبت لها شؤونها المالية .. صديقنا يتصرف بنذالة حقيقية .

دافعت عنه دفاعا ضعيفا .. قال :

ـ انه طبيب معروف ، مكسبه كما تعلم .. لكنه يريد ان يجوع اولاده ومطلقته ناسيا ما تحملته من أجله ومن أجلنا .

ـ لا داعي لان تشتبك مسائل خاصة بمسائل اكبر منها وأهم بمراحل .

ضحك بشدة ، وجرني فدخلنا « كفر الطماعين » . قال :

ـ هذا ما فلته لها . وفد وافقني وقالت انها لم تنتظره ولم تضح من اجله فقط ، لكنها فعلت ذلك من أجل أشياء أهم .

شعرت براحة مفاجئة . فلت ان هذا يوفر علينا الكثير . ومنذ متى نسينا هذه الشوارع الضيقة المزدحمة بالجوع والفقر والمرض . في هذا الحي يقطن الشعب الذي تعذبنا به كثيرا ، فكيف تنكر أنفك رائحة حياته القذرة . هنا يموت رجال من نقص الزاد وهجوم الداء ويقتل الرجل أخاه من أجل قرش واحد كما تروي الصحف أحيانا . لكن ذلك أصبح مجرد كلام كموضوعات الانشاء التي كنت تأخذ فيها درجة نهائية . قذفت امرأة بماء قذر جاء تحت اقدامنا . تأملت خلقتها المشوهة والقذارة في أقدامها . قلت لا مسرة لاحد هنا . والنوم مع هذه المرأة لا يمكن ان يكون نشوة ولكنه عذاب . قال :

ـ .. ولكنها ، أعني مطلقة حلمي ، قالت ان الموافقة على الجرائم الصغرى ، يعني الموافقة على الجرائم الكبرى ..

تدبرت الجملة مرات . وقلت ان شيئا لم يعد يهمنا (وفي كل ليلة تنتقل البنت الساكنة امامي عبر الشرفة الى حجرة نوم جارها . وأظل أنتظر عودتها بقلق . وفي الصباح أتأمل صباها النضر . وأعجب لانني أتركها تنحدر . ومرة حدثتني النفس الامارة بالسوء ، أن أقاسم صاحب الشرفة مكاسبه . شرفتها وسط شرفتينا . والذي ينتقل الى شرفة اليمين . ينتقل الى شرفة اليسار . وقلت أنني أستحق عن جدارة لقب الوغد)

تهنا في الشوارع الضيقة . المنفصلة المتصلة ، كبيت جحا . وقف يسأل عن عنوان . قال :

ـ وأنا أناقشه مزحت معه مزاحا ثقيلا .. اقترحت عليه صياغة طريفة لبطاقة الدعوة ، ولكنه زعل .

ـ أعرف ان مزاحك قاس .. ماذا حدث ؟

ـ قرفان .. ومع ذلك فهي مجرد نكتة . لم نعرف الزواج ببطاقات . أحبك يا زميلة . وأنا أيضا . ما رأيك أن نتزوج . لا مانع قبل ان يدهمنا اولاد الكلب ويلقوا بنا في السجن وفي نفس اليوم نذهب للمأذون . وبعد شهر نكون انت في سجن أبو زعبل وهي في سجن القناطر . وتبحث عن شاويش جوعه أهم من وظيفته فتتصل القلوب برسائل غرامية . ألم يتزوج حلمي اول مرة بهذه الطريقة .. فلماذا يطبع بطاقات ؟.

ضحكت قائلا :

ـ أنت أقسى مما ظننت ؟

ـ ألم أقل له شيئا .. اقترحت عليه أن يكتب على غلاف البطاقة « زواج زليخة وعاشور » فأثار مشكلة كيف يكتب مهنة نوال في البطاقة . هل يزعم انها دكتورة كما يفعل . أم ان النقابة قد تحرجه لانها ليست كذلك ، فاقترحت عليه ان يكتب تحت اسمها : من اعتى بيوت الطبقة الجديدة ، فلوى بوزه ..

صمتنا . غنى : زليخة بتحب عاشور .. وعاشور بيحب زليخه

سألته أين نحن ذاهبان ؟

ـ أعرف مطبعة هنا .. أريد ان أطبع بطاقة باسمي ..

سألت دهشا :

ـ ما السبب ؟

ـ لا بد ان يحدد كل منا بالضبط من هو ؟

(قلت أنه قاس . ولكن قسوته تعتمد على حقيقة ما انحدر اليه حالنا . ولكن من الذي يستطيع مقاومة لحظات الضعف الى الابد . تشاجر حلمي مع المأمور بسببه . تبادلا سبابا مقذعا . ضربه العساكر بأحذيتهم الجلدية السميكة . عاد دامي الوجه . شقت شفته السفلى . آثار التئام الجرح واضحة . بدأ الاضراب . في اليوم التاسع قال المأمور : سننقل زميلكم الى المصحة فتناولوا طعامكم . صمتنا ولم نرد . كان فمي ملحي ساعتها . بللت لساني بالماء . أشحت بوجهي عنه . في اليوم العشرين جاءت عربة الاسعاف . تحاملنا على أنفسنا . شاهدتهم وهم ينقلونه على نقالة مستطيلة . كنت ضعيفا لا أكاد أقدر على المشي . سرت بجواره وحلمي معي . قال حلمي :

ـ شد حيلك .. لا تستسلم للاوهام . حالتك عادية . وبالرعاية تسترد صحتك غامت عيناه . انقلب لونهما بياضا كله . هز رأسه بابتسامة شاحبة . قال :

ـ اسمع .. عندي عشرون قيراطا في البلد.. اذا مت .. ف..

وضعت يدي على فمه . منعته من الكلام . شوحت بيدي مودعا. كان الغروب يهبط وانيا على فناء السجن ، والشمس قانية . عصافير كثيرة تتقافز هناك . اخفيت وجهي في حائط .. وبكيت !

* * *

لافتة ناحلة . فقد سوادها لمعته . كتابتها البيضاء باهتة . قرأت بصعوبة « مطبعة العدالة الكبرى لصاحبها محمود المهدي » . الرجل أثر من عهد بائد . على صندوق الحروف انحنى . عيناه الضعيفتان محاطتان بنظارة سميكة . عندما قام اكتشفت انحناءة غير يسيرة في قامته . والمكان رطب ومظلم وموحش . ماكينة القص في الركن الايسر . عاد الى ركنه متسائلا عما نريد . قال صابر :

ـ اريد ان اطبع كرتا باسمي

ـ حرف أم اكلشيه ؟

ـ حرف .. ١٨ رقعه أبيض ..

لم يتحرك من مكانه . عاد لملقاطه مواصلا التقاط الحروف . قال:

ـ العلبة ١٥ قرشا . وكل مائة زيادة بعشرة قروش. عندك قلم.. اكتب الكرت ..

انحنى صابر على منضدة صغيرة بجانب ماكينة القص . كتب

صابر الكرداني

ثائر سابق ـ حاليا شيطان أخرس

١٨ شارع مراد ـ الجيزة .

ابتسمت مذهولا . فلت ان الجنون يدهمنا . ناوله الورقة . لم يمد يده ، قال :

ـ اقرأ وسأحفظ ..

سمع بهدوء . استرجع الكلمات . قال :

ـ نحن نأكل عيش يا استاذ . هناك بوظة بجوارنا اذا أردت المفرشة .

ذلك الجنون كيف يتساقط علينا ؟ وقديما قالوا ان رؤوسنا أخطر ما فينا . فيا للكارثة التي تأكلنا .

سعل صابر . قال :

ـ ولكني لا أمزح يا اسطى محمود ..

ترك الرجل ما في يده . التفت الينا . قال :

ـ هل حضرته ... ؟

ولف يده حول رأسه في حركة دائرية ..

قلت ضاحكا :

ـ لا .. ومع ذلك ما شأنك أنت .. اطبع له ما يريد .. وخذ نقودك ..

دعانا للجلوس على دكة خشبية بجواره . قال :

ـ كيف يا استاذ ؟ . لا بد ان أفهم . ما معنى ثائر سابق . هل حضرتك وفدي ؟

ـ لا ! .

ـ أنت أصغر مني بكثير ، ولا أذكر اني رأيتك بين عمال العنابر أبدا ..

شاقني الحوار . قلت :

ـ ألا يوجد ثوريون غير هؤلاء يا عم محمود ؟

ضحك الرجل وقال :

ـ هذا عن ايامنا .. اما ايامكم .. القصد .. حضراتكم ايه ؟

همست في اذنه .. ابتسم قائلا :

ـ آه .. انتم بتوع الخبز والحرية .. اهـــلا (ثم بعد لحظة) ولكني آسف .. لن اطبع الكرت .

ـ لماذا ؟

ـ مطبعتي سيئة السمعة .. تدهمها الشرطـــة في كل وقت .. والكرت مريب ..

تساءلت عما أساء سمعة المطبعة .. قال :

ـ طبعنا بها زمان منشورات اليد السوداء .. وجماعة الانتقام .. وكان أولاد عنايت يجلسون عندي قبل أن يقتلوا السردار ..

ـ ولكن هذا تاريخ قديم .. فلماذا يلاحقونك ؟

ـ ذاك شأنهم .. والادهى من ذلك انني عندما كبرت وأصبح نظري على فدي جئت بمن يعينني على العمل فزاد الطين بلة ..

تساءلت عيناي . انحنى فأخرج نصف سيجارة . أشعلها . قال :

ـ طبع بدون علمي كتاب « رجوع الشيخ الى صباه ووصفات لتقوية الباه » وأخذ يوزعه . فكبس بوليس الآداب المطبعة ..

جلجلت ضحكات صابر . نظر اليه الرجل دهشا . قال :

ـ لا تزعل يا عم محمود ، تضحكني أحيانا النهايات الهازلة للاشياء الجادة .. ولكن لعلها لا تكون نفس الحروف التي طبعت بها منشورات اليد السوداء .

قال الرجل مبتسما كأنه أدرك النكتة :

ـ لا .. الاخرى راحت .. عرفت واحـــدا منكم أيام الحرب .. طبعت له ما جاء به . وطلب صنـــدوق حروف ليشتريه فأهديتـــه صندوقي القديم ..

تزايدت صيحات صابر . قال :

ـ أيها الرجل العجوز .. كيف لا تعرف صابر الكرداني .. هـل أذكر لك علامة . حرف العين كان ناقصا سبع قطع . وعدت بتدبيرهـا ولدي لم اجيء مرة ثانية ..

رفع الرجل رأسه . بانت على ملامحه معاناة التذكر . صاح :

ـ هو انت ؟ يا مرحب ..

احضن كل منهما الاخر في شوق . ووقعت أنظر اليهما حائرا .

* * *

الى الزحام عدنا . أقبل المساء على الاحياء . الزحام عنمـــة متحركه . صمته طويل أطول من المعتاد . قدرت ان ننتظر الاوتوبيس . قال : بل نمشي . سنمنح زوجتي غايته وتقول : لك بيت فكف عن التصعلك . غبت بالليالي دون أن تنبح . ذكرتها بذلك قالت : كان وراءكم ما تفعلونه . أما الان فالتصعلك مريب . شغلني انها بدأت تغار . بدا الامر مبهجـــا في البدايه . أصبح مزعجا اخبار الانهيارات تتوالى . البيوت التي صمدت لعواصف الزمن فاحت منها رائحة العفونه . قالت مرة : فقدنم الكثير حما . ولكنكم ناكرون للجميل . قلت : حـورية ، لا تبالغي .. حوادث فردية والطلاق يحدث كل يوم . همهمت : أنتم تطلقون كل شيء . بعد الانتظار الطويل ؟ فيم كان العناء . لماذا يطلق حلمي زوجته ؟ من أجل هذا الشيء المسمى نوال ؟ نفخت وقلت : التغير قانون الحيـــاة فلا تزيدي تعاستي . وضعت الكريم على وجنتيها ودارت بمقدمة كفها حركه دائرية . قالت : ولكن النذالة ليست قانونها . تابعت اهتمامها بتجميل وجهها رانيا . التفكير أصبح عملية مرهقة . ماذا حدث لنا جميعه . لن ننتهي علامات الاستفهام حتى تصيبك بتصلب الشرايين . وغدا سنقف في صاله المطار ننتظر عودة نوال بعد حصولها على الطلاق . وسنجتمع بعد غد في حفل الخطوبة . سيكون طريفا أن أدعو أمـــي للتعرف بها . فكيف تتصرف العجوز الريفيـــة مع امرأة مثل هـــذه ؟ أوف . صدمني رجل مار . قال صابر :

ـ قررت أن أعود للعمل .

ـ أي عمل ؟!

بضحكة ساخرة قال :

ـ لم يكن لنا عمل سواه .

تنهدت . قلت :

ـ لا تجهل المخاطرة طبعا .

ـ وهل جهلتها يوما ؟

بعد لحظة صمت :

ـ ما رأيك .. أنبحث الامر معا ؟

متهربا من عينيه قلت :

ـ أفكر ثم نتناقش ..

٢ ـ أما أحدكما فيسقي ربه خمرا .. وأما الآخر فيصلب

انزلقت قدمي على الرخام اللامع . قلت : ها نحن نفشل في أول اختبار لنا . سنطرد من هذا الفردوس بتهمة الجهل بآدابه العظيمة .. ومن السهل أن تسأل . ولكن كشف الجهل يبدو معرة . ولنؤرخ لهذه الليلة ، ففيها دخل سليل كفور المنوفية الهيلتون لاول مرة . والـذي اختار اسم قاعة « الف ليلة وليلة » ذوافة خبير . أما كفتا أمي فقـد دبغتهما خضرة لا نزول . عشرة أعوام تعجن روث الماشية . فمن يصـــول هذه الحقيقة الآن ؟ ولتستدع قدرتك السابقة على التحدي والاستهانه . اذ ذاك نستطيع أن نبصق على هذا المكان . نحتقره . هل نستطيع أن نفعل هذا حقا ؟ كان ذلك ممكنا في الزمان الخالي . في الداخل كانت قوة تحد كبير ، فمن يعيد ما فقد ؟ قدرنا أن ندخله لا غازين ولكـــن مبهورين . ملتحقون جدد . لن تستطيع بعد ذلك أن نزعم ان هذا المكان لا يدخله الا اللصوص ومصاصو الدماء ، فهذا كلام يبـدو كالاكذوبة . هل تسعفك الذاكرة باسم ذلك المتحمس الذي اقترح مرة أن نحوله الى مستشفى للشعب ؟ ستكون نكتة رائعة لو انتهى التفتيش بانـه حلمـي نفسه .

يوم عودتهـا سهرنا في « سنريو المطار » . انحنت عليّ تـرد تهنئتي بحصولها على الطلاق .. ثم سألت :

ـ كيف حال زوجتك ؟

أشعل حلمي سيجارتها . قالت :

ـ كيف تخاطر امرأة بجمالها في عملية سخيفة كالحمل ؟

انفلتت ضحكة صابر الريفية . لفتت الينا الانظار . قال :

ـ لهذا تتزوج النساء ، ولعل لديك وظيفة أخرى لنفسك .

حلمي بجفاء لم يفلح في اخفائه :

ـ للضحك هنا أصول يا سيد صابر ..

ابتسم كيانه الضخم بسمة ساخرة :

ـ طبعا تزيد الاصول دائما في المستوقدات ومجمعات القمامة .

صمت كلاهما . قالت نوال مغيرة الجو :

ـ هناك فرصة سانحة لعمل مربح لك . ما رأيك ؟

تساءلت بلهفة :

ـ أين ؟

ـ شركة بترول كويتية .

سألت عن التفاصيل باهتمام . أجر مجز حقا وعمل قليل . أيغير السفر ما يملأ القلب من حيرة ؟ أتستطيع هناك ان تجد النوم المريح ؟ قـــالت :

ـ أمامك وقت لتفكر .. ولو لم يمانع صابر بوسعي أن أدبر لـه فرصة أخرى !

تناول رشفة من كوب الماء . نظر الى الراقصين في البيست . قال :

ـ فكرة طريفة .. وأمس لعن عمك محمود الزمان الذي جعـــل مطبعته تبدأ باليد السوداء وتنتهي برجوع الشيخ ..

أشحت بوجهي . لم ترد . تظاهرت انها لم تفهم . استأذن حلمي وقاما يرقصان . تأملت جسدها الفارع ملتصقا بجسده . قلت ان مقاومة ذلك كله ليست مستحيلة . ولكن أين القوة ؟ قال ساخرا :

ـ أهنئك بالوظيفة الجديدة .. ستذوق أموال الاحتكارات الاميركية قبل أن تموت)

في زحام القاعة تبدو الحياة أكثر مرحا .. وتأمل هذه الكوكبة من المحسان . غابت عن العين كثير من المسرات . وهذا العطر الفواح . ولا تلمح العين الا عددا قليلا من زملاء الزمان الماضي ، فهل تجاهل حلمي دعوتهم أم أقعدتهم رهبة المكان . ولو كان هنا .. أكان يدعوه ؟ آه .. كنا ضحكنا حتى طفرت الدموع . (ويوم اختفى كان يوما كابوسيا فمتى تزول مرارته . بلا مقدمات على الاطلاق . بيد انني راجعت الشواهد بعد ذلك فأيقنت انني كنت غبيا الى درجة الحماقة .. أين اختفى حذر الزمان الماضي . كنا نشم الخطر على بعد أميال . ولكننا نعيش عصر الفاليوم فلعنة الله على كل شيء . ضغطت على الجرس متأملا اللافتة التي تحمل اسمه . باهتة لطول ما مر عليها من أزمان . وضعت لاول مرة في عهد الطلب بالجامعة . ويوما كانت مقرا لطبعة مرعبة برقت في حناياها عيوننا المفترسة . وتفجر الحماس . طال الضغط وما من يفتح . أخيرا أطل وجه الجارة . قالت :

ـ أستاذ عمر .. الحمد لله .. هاك المفتاح ..

فلت :

ـ ألم يقل متى يعود ؟

بوجه كاسف قالت :

ـ الله أعلم .. جاءوا فجر أول أمس وأخذوه .. أصر قبل أن يمضي على ايقاظي وترك لك المفتاح معي .

جلست قليلا في صالة شقتها . دخنت بشراهة . سألتني :

ـ ماذا حدث يا أستاذ ؟ ألم تقولوا ان هذا قد انقضى ؟!

ابتسمت محزونا ولم أرد . سألت حوائط الشقة الفاحلة أن تحدثني فاستعصى عليها الكلام فيا للقسوة . فتشت الاوراق بدقة . حرقت بعضها . قبل أن أمضي تذكرت درجا سريا في الدولاب . عدت اليه . يا لي من غبي ! كدت أنساه . فرأت باشتباه . مزقت كل شيء . قالت الجارة :

ـ لا مؤاخذة يا سي عمر .. كلمني الاستاذ عن الايجار ..

ـ سيصلك في موعده ..

ها قد مضى أكثر من عام على غيابه .. ففي أي أرض يستقر الآن. وماذا تغير من صور الماضي ؟

في أي سجون هذا العالم يستقر الشاويش متولي . وعنبر ٣ من يسكنه الآن ؟ لصوص أم فوادون ؟ وها نحن في ليلة هيلتونية فاخرة . ما أطرف أن تصرخ الآن بما حدث . تلقى حلمي الخبر بثبات غير عادي . قال :

ـ نصحته فلم ينتصح . الظروف تغيرت ..

تأملت الكلام الذي فاه بذهول . أهي نفس شفاه الزمان الماضي؟ قلت :

ـ لم يكن يفعل ما يضر . والمسألة أبسط مما يصورونها . وحتى لو لم تكن كذلك .. فهل تظن انه كان ...

نفخ بضيق .. قال :

ـ انه مغامر ومتطرف .. ويساريته طفلية ..

هذا عصر البخر والعفونة .. اغلقوا افواهكم قبل ان تقولوا الدنيه . ويوما قبل أن يغيب قال : « لن يحكموا علينا أن نظل كالاغوات والبلد في حالة حرب » . أما يوم مأتم أمه فان المقرىء قرأ « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان . قال أحدهما : اني أراني أعصر خمرا . وقال الآخر : اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين » . ساعتها قلت ان الحلم قديم وكذلك القهر . فمتى يرتاح القلب ؟ ها هي أقدامنا تنزلق الى مستنقع لا ندري قراره . كذلك الجب الذي ألقي فيه يوسف . فمن لنا بمن ينجدنا . وهل تملك حقا قوة ترد بها اغراء التي تقول لك : هيت لك . حفل زفافهما شاهد على ما انتهينا اليه .

اقتربا مني . فاح عطرهما على البعد .. لمعت الاضواء على فستان الزفاف الابيض . سألت :

ـ لماذا غابت حورية ؟

ـ اعتذرت بالمرض .. ولعل زهورها أعجبتك !

ضحكت قائلة :

ـ نعم أرسلت لي زهورا صفراء .. أنت تفهم لغة الالوان طبعا .

« أجل : الموت . هذا رأيها فيها . وأمس صاحت : لن أحضر .. مشنفتكم انتم قبلوها كما تشاءون » .

قلت مهونا :

ـ لا تخضعي للاوهام .. حورية تحترمك ..

ـ أشكرك على مجاملتك .. الحقيقة انها لا تحبني .. وكثيرون منكم كذلك .. دعونا الجميع .. وهاك النتيجة .

ـ مشاغل الحياة (ثم ضاحكا) ونحن مستجدون في هذا العالم الهيلتوني ..

حلمي مبتسما :

ـ البعض يقول انني تبرجزت ، وهذه مجرد شعارات فارغة ..

« أصبح كل الكلام فارغا .. فلتفهفه كل شياطين الجحيم . ولو صدق ما يقول ، اذن فحياتنا ضاعت في لعبة هازلة . وملعون أب من يصدق الاحلام بعد ذلك . تأمل الراقصة التي أمامك . ما أمتع جسدها. وقبل أعوام لم تكن العين ترى الا حوريه . كان عنافها منعة القلب والروح . ثم أضحت العين تزوغ أحيانا وراء ردف سارح أو نهد هطل . بيد انها ظلت مرفأ الجسد المرهق . وها نحن نفكر في الخيانة . وفي لحظات الحب كنت أندمج الى حد لا أميز لنفسي أعضاء . ومن طوارىء الزمن الجديد أن نشعر بكل شيء حولك . تحولت لحظات نشوتنا الى عذاب . كالذبابة المقلعة أصبحت . حول زواجهما اختلفنا . صاحت . سببت . دافعت ما استطعت . قالت : عندما يبدأ الجيل في الانهيار لا يبقى شيء . لاحظت أسيان انها بدأت تهتم بتجميل نفسها . عرفت منضدة التسريحة أدوات التجميل . وأول مرة رأتها نوال قالت :

ـ زوجتك جميلة ولكنها لا تعرف كيف تكون أنثى . دعها لي .

رفضت يومها . سخرت منها حورية الى حد التجريح . لكن القلق بدأ ينتابها تدريجيا . تزايد . قلت ان هذا طبيعي . ذبل شبابها في سنوات السجن الطويلة ، ولعلها تظن انني قد أطلقها . فهل خطر هذا على القلب . ما أقساها من تصورات .. صاحت :

ـ لم يعد هناك مستحيل .

ـ حورية .. لا تحيلي حياتنا جحيما ..

تنمرت عيونها الجميلة .. سرح الكدر فيهما .. قالت :

ـ ذهب كل شيء فلماذا أبقى أنا.. هه .. أصبح شعاركم الوحيد: انكحوا ما طاب لكم من النساء .

صحت غاضبا :

ـ هذا تجريح لا أقبله ، وشخصي لا يهمني .. لكنك تتعدين الحدود الى أشياء أخرى ..

ضحكت ساخرة .. قالت :

ـ الله يرحم الجميع .. ستعود من الكويت بسيارة وتصبح هيلتونيا كصديقك الطبيب ، فهل تبقي عليّ ؟!!

أصبحنا نقتات بالكدر . شكوكها تزداد . ولتقر بأنه رغم تأكيداتك فان النفس لا تبرأ من الغرض ولا من المرض .. »

انصرفت نوال لضيوفها . نظر حلمي الى كوكبة صغيرة من زملاء السجن يجلسون في ركن المكان قال :

ـ قاطع الزملاء حفل زفافي .

ـ هذه أوهام .. مجرد مشاغل ..

تناول كأسين من خادم كان يعبر المكان . قال :

ـ لا تعزني .. يأخذون موقفا مني وانت تفهم (ثم بعد لحظة) ماذا يريدون ؟ انتهى كل شيء . سأعيش حياتي كما أريد .

ـ لا تشغل بالك .. أنت تفهم السبب ..

باستهانة قال :

ـ هذا تاريخ قديم وانتهى .. المسألة متعلقة بزوجها السابق . وهي ضحية وليست جانية . لقد اضطرها للعمل معه ضدنا . ثم اننا قد ابتسمنا في وجوه الجميع وانتهى الامر .. هل هي وحدها التي وقعت من قمر القفة ؟!!

أبمثل هذا المنطق كنا نعالج المسائل ؟ أغلقوا أفواهكم قبل أن تقولوا الدنية ..

انحنى يسلم على واحدة من المدعوات . قدمها لي . تأملت اكتظاظ أنوثتها منبهرا . كانت جميلة كزهرة رغم شحوب وجهها . تابعت جلالها مشوقا . تحدثنا قليلا . استأذنت لتهنىء نوال . غمز بعينيه في اثرها . قال :

ـ لاحظت انها تأملتك باهتمام . أنت مدين لي بالشكر . أثرت اهتمامها بتاريخك العظيم !

آه .. تأمل المهزلة .. لتضحك حتى الموت .. أمثل هذا كنا نصنع التاريخ ؟..

ـ أشكرك .. ولكن من هي ؟

ضربني على كتفي ضاحكا . قال :

ـ لا تخش شيئا .. وهي في ظروف تنعدم معها المقاومة ..

ـ يعني ؟

ـ أسر زوجها في عملية حربية منذ عام .. والوحدة مرار كما تعلم !

ماعت نفسي . تقلص حجابي الحاجز . تعللت بالحمام . بعدت عنه . قال ملاحقا :

ـ لا تشغل بالك .. بوسع نوال أن تسهل الطريق ..

. . . . . .

عند الباب التحقت بكوكبة الرفاق . لم يقطع وصولي حديثهم . في البداية بدأ كأحاديث الزمان الماضي .. ثم انتشرت العفونة . تحدث واحد عن « سام ٣ » وغارات العمق . وروى مطلع بعض الاسرار الفكهة . وقال ثالث انه يكتب مسرحية عن بحر البقر وفيلما عن مصنع أبي زعبل . قهقهت أعماقي بالخمر الزاعقة فيها . قلت : عال .. صفقة رابحة لا تقل عن ألفين من الجنيهات . علبة فاليوم كاملة لا تفيد . وفي الاسبوع الماضي قال حلمي : كطبيب وكصديق أحذرك من ادمان الفاليوم، ستصاب بانهيار عصبي مفاجىء فحذار . مرّ شبح المرأة الفارعة الطول بجوارنا . أغضيت خجلا . هل يشير حلمي يوما لزوجتي ويقول ان الوحدة مرار !

سحبني واحد الى ركن قصي . قال :

ـ ألديك أخبار عن صابر ؟

ـ مضى أكثر من عام على غيابه .. في البداية صدوني عندما سألت الى حد التهديد .. ثم انقطعت الاخبار .

ـ أخطرني رسول منه انه في ظروف سيئة .

سألت ملهوفا عن التفاصيل . قال :

ـ عاملوه بشراسة فأضرب عن الطعام وعاوده الداء القديم .

بدت التفاصيل مرعبة .. حكى طويلا ثم قال :

ـ معلوماتي ان المسألة خطيرة فعلا . ثقب في الرئة اليمنى بمساحة أربعة سنتيمترات مربعة .

توقف الحديث .. افتتح البوفيه .. أكلوا هنيئا وشربوا. ضحكت اكثر مما ينبغي . قلت اني مريض .. مريض .. عدت في الهزيع الاخير من الليل مرهقا .. فتحت حورية عينيها . غطت طفلتنا . قالت :

ـ نحن في الفجر .. لماذا تقلقنا ؟

ـ كنت في حفل زفاف ..

ساخرة قالت :

ـ عقبال عندك ..

لم أرد .

عندما اخبرت حلمي قال :

ـ خبر سيىء .

ـ لا بد من التصرف .

ـ آه .. طبعا .. ولكن ليس في يدنا شيء ..

طالعته نظرتي المذهولة . قال :

ـ اسمع .. نوال تعرف بعض الناس .. أصدقاء زوجها الاول .

صحت بجزع :

ـ هؤلاء ؟!

ـ نعم .

ـ ولكنهم ...

نفخ ساخطا :

ـ لا تزعجني .. ما فات مات . سنسافر غدا الى بيروت . بعد عودتنا من شهر العسل نرتب لذلك ..

ضحكت . قهقهت . نظر اليّ دهشا . قال :

ـ عمر .. أعصابك مرهقة جدا .. حذرتك واكرر التحذير) .

قالت حورية :

ـ لماذا لا تنام ؟

ذلك الحلم المستعصي مني يتحقق ؟

ـ آه .. ناوليني المنوم .. واغلي كوب اللبن .

قامت برمة .. اختفت في اتجاه المطبخ . فتحت الشرفة . كانت الفتاة تعود من جولتها الليلية . تأملت قفزها من الشرفة كبهلوان صغير. أذن الفجر من بعيد « يا نائما بين الانام .. قم واذكر الحي الذي لا ينام . مولاك يدعوك الى ذكره وأنت مشغول بطيب المنام » . ما أتعس أن تكون حيا ولا تنام . سرى النوم في الاعصاب . ولكن أين النوم ؟ تربع المفرى في الثلث الاخير من رأسي . قرأ : « يا صاحبي السجن.. أما أحدكما فيسقي ربه خمرا . وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . قضي الامر الذي فيه تستفتيان » .

٣ ـ النوم

ما أطول الطريق . ما أخفق زحامه . برودة مطلع الليل . وتسأل الى أين ؟ وما من مجيب . هل تعود ليالي النوم حقا ؟ ثلاث ليال كاملة وأنت يقظ تماما . الزعيق المفاجىء لاتفه سبب . الرجفة الطارئة . اهتزاز الشفاه . وتقول حورية : عيناك مفتوحتان على الآخر . نظراتك مخيفة فهل أنت بخير ؟ نعم . أعصابك مشدودة كحبل مركب يشده انسان بأقصى قوته . المركب ثقيل . والحبل مشدود . مشدود . وتذكر يوم عرض عليك العمل فجبنت وتعللت بما تعللت . رفع اكثر من صديق كتفيه يائسا . بصقت الف مرة على عتبة بيونهم . نحمس آخرون . وصدرت البرقيات ساخنة ومحتجة . استدعاك الرجل . ألقى البرقيات في وجهك . صاحت ملامحه المنتفخة :

ـ سبق أن حذرتك من التدخل فيما لا يعنيك .

ـ لكن هذا يعنيني .

زاعقا : لست بقية أهله ..

ـ لا أهل له وأنا صديقه .

ـ أضرت بكما الصداقة قديما فاهتم بشؤونك ..

ـ هذه شؤوني .. أخص شؤوني ..

ابتسم ابتسامة صفراء . قال :

ـ الظاهر انني سأرسلك لمؤانسته .

نظرت اليه بشراسة . ها هم زبانيته يتبعونك . كالظل يمشون وراءك . بمظاهرة مريبة يمارسون عملهم . كأنهم يقولون : نحن خلفك فلا تفعل شيئا . وقد نجحوا ، أصبحت أسيرا في أيديهم . لا تفعل شيئا . لا تتصل بأحد .

وأمس في الفجر . خبط الباب . قمت مذعورا . وجدت وجها غريبا . عانيت حتى تذكرت . قال بلهفة :

ـ أستاذ عمر ألا تتذكرني ؟ أنا الشاويش متولي ..

ـ أهلا ... تفضل .

تتابعت انفاسه . قال :

ـ لا تؤاخذني .. حاولت أن أجيء نهارا لكن الزبانية حولك ..

ـ خيرا يا عم متولي ..

ـ الاستاذ صابر في خطر .. وهم يصرون على اهمال علاجه ..

روى التفاصيل المرعبة . فام ، طلبت منه أن ينتظر . عدت بنقود دسستها في يده . رفض باباء . قال :

ـ الله يسامحك يا أستاذ .. صحيح نحن ناخذ احيانا ، لكن الاستاذ أخويا .. عيب !

بكت حورية عندما سمعت التفاصيل . ليلة باكية حزينة بلا نوم . عابثتني في العصر فكرة شيطانية . سأقودهم في رحلة طويلة على الاقدام . اطول رحله في التاريخ . رجل بلا نوم يقود تابعيه في رحلة الى أعماق المدينة . من الجيزة بدانا . وها نحن في مطلع شارع الازهر. لا تكل أقدامك . كيف تاتى لك ان تمشي كل هذا بلا نوم ؟ وقفت أشرب في مقهى . أسرع الرجل يتحدث في التليفون . قلت انه لا بد وقد تعب من المشي ويريد بديلا . تركت كوب الماء فجاة وخرجت مسرعا . لم يكمل مكالمته . لمحته يجري خلفي ملهوفا . قصرت خطواتي حتى لحقني . الزحام يزداد . يكاثف . أين كان كل هؤلاء الناس في الايام الماضية ؟ كيف عميت العين عنهم ؟ الدنيا برد .. برد .. لو معطف أو طاقية . قال صوت : مولد الحسين كل سنة وأنتم طيبون . غبت في الزحام . تتبعني بمشقة . ثلاثة أيام بلا نوم . حبة الفاليوم فقدت مفعولها . القلق يحطم الاعصاب . لحظة ارتخاء واحدة . لحظه نوم . أريد أن أغمض عيني . جفوني مرهقة .. تنز ألما لا يطاق . امش . امش . امش . رأسك عار فهل تخطف عمامة أم طربوشا ؟ البلدة الفلاحي أنسب الاشياء . جلابيب وبدل وبلاطي . قساتين وجونلات وملايات لف . ناس . ناس . ناس . يزعمون فلم لا تزعق . يضحكون فلم لا يواجههم بالحقيقة المرة . رائحة العرق البلدي ضعيفة . لكن الزحام دافىء . الرجل يمشي . انا أمشي . في هذا الشارع قال : سأعود الى العمل . أي عمل ؟ لم يكن لنا عمل سواه . لا تجهل المخاطر طبعا . لم أجهلها يوما . أفكر ثم نتناقش . عند المناقشة جبنت . نملك قدرة على الكلام تحيل الباطل حقا ، والحق باطلا . امش . فلتتحطم سيقانه . لا يهمني ماذا يحدث بعد ذلك . سيعود لرئيسه ذي الوجه المنتفخ باكيا : حطم أقدامي يا بيه .. دشدشها .. يا لها من نكتة . لاضحك عليها . لماذا لا تضحك . تخجل ؟ لا أحد يسمعك .. الا نسمع الضجيج ؟ فلنضحك مرة . نبتسم . البسمة بلهاء . لا أحد قد تنبه . نضحك بصوت أعلى . ها . ها . ها . براڤو . فهقه . قهقه . لماذا ينظر اليّ هذا الرجل . نسأله . مش معقول . ماذا حدث لي ؟ هل بدأ الانهيار الذي تنبأ به حلمي ؟ انهيار ماذا ؟ حلمي كلب « وولف » ضخم نافه . انسان يبيع كل شيء بفخذي امرأة . سفخص. اسأل الرجل :

ـ يا سيد .. يا مواطن .. لماذا تبتسم ؟ أنا أكلمك . نعم أنت . أتظنني مجنونا ؟ لا .. انتظر . قف حلفتك بالحسين .. سأقول لك شيئا .. هذا الرجل الذي يمشي ورائي مخبر .. تعال هنا يا ابن اللئيمة .. هل تنكر انك مخبر ؟ قفوا يا عالم .. يا هوه .. يا مواطنين .. يا جدعان الفورية والتربيعة والجمالية والحسين .. ففوا .. اللي يحب الناس الجدعان يصفق . كمان نصفيقة . هذا الرجل مخبر ، وأنا أسأله أمامكم : لماذا تمشي ورائي ؟ أجب يا روح أمك ..

صوت : هل أنت مخبر بجد ؟ آخر : تكلم . الرجل خائفا : اتركني يا عم انت .. هذا رجل مجنون .

ـ اسكت يا ابن الكلب .. بطاقتك .

ـ ليس معي بطاقة ..

ـ ألم أقل لكم ؟

صوت : لماذا تمشي وراءه ؟ آخر : مخدرات ؟ ثالث : دعارة ؟

ـ لا جاسوس .

ـ اسمعوا يا عالم .. يا هوه .. أنا جاسوس . يا نذل يا خادم الانذال . خذوا هذه الجاكتة . والكرافتة . والقميص . والفانلة . هذه الندبة السوداء . وهذه . وهذه . أربع رصاصات أصابتني في بور سعيد سنة ١٩٥٦ . اسألوا ويليامز ضابط المخابرات الانكليزي كم كيلو من لحمي نهشته كلابه .. امسكه يا معلم قبل أن يهرب .

« تعال هنا يا ابن الزانية . ماشي وراه ليه ؟ » « يا عالم مظلوم. ليس لي به شأن دا راجل مجنون » .

ـ سامع يا معلم .. أنا مجنون .. ثلاثة أيام بلا نوم أولاد الكلب..

ـ يا معلم لا تصدقه .. هذا رجل كافر ، من اللي بيشتموا ربنا..

ـ وانت مالك .. يعني ربنا حارقك فوي .. ولا يعني ملاكيك ..

ـ بذمتك يا معلم .. واحد صاحبك ، أخوك ، حبيبك ، أكلت معه عيش وملح . نمتو سوى على البرش ، في الندى والطل . في المطر والحر . وعيان . سل درجة تالته اللهم احفظنا ويشفي كل عيان . في صدره . هنا يا معلم . تقب أربعة سنتي . فد الريال الفضة القديم . ومع ذلك يحبسوه.كفرت اللي قلت حرام ، عيب ، ما يصحش. قلت لهم بالذوق بالانسانية..رجيتهم . سرحوا ورائي ميت كلب مسفور، ده واحد منهم ..

ـ عداك العيب يا أستاذ .. بطلوا افترا بقى على العالم !

ـ يا معلم أنا غلبان .. أكل عيش .

ـ ابحث لك عن شغلة نظيفة .. أوسخها شغلة أشرف من شغلتك. سرح نسوان . بيع مخدرات . لكن أذية الجدعان لأ ..

ـ يا معلم .. دول كفرة .. دا رافضي وابن رافضي ..

ـ برضه بيقول لي ربنا .. انت هاستغفلني .. هانسرح بي . طب وديني وما أعبد ما أنا سايبك الا بضرب المركوب . يا جدعان . يا رجالة . افلع يا جدع انت وهوه اللامؤاخذة . اللي يحب ربنا يضرب . اللي يحب النبي يضرب . اللي يحب الحسين يضرب . كرامة لك يا سيدي يا حسين يا ميت مظلوم في بلاد الغربة . كرامة للحسين. اضربوا . اضربوا المفتري ابن المفتري . بالمركوب يا سيد . ايدك لأ . ما توسخهاش . بالمركوب .

ضربوا . ضربت . تزايد الزحام . في قلبه رأيته . كانت قامته المحنية قد استقامت . يرى جيدا بلا نظارة . يحمل حذاءه القديم . يضرب بقوة كشاب عفي . قلت :

ـ يا عم محمود .. يا عم محمود يا مهدي .. أنا عمر .. عمر الدهشان ..

نظر اليّ . برقت عيناه بنظرة قوية :

ـ مش مهم .. اضرب . اللي يحب الحسين يضرب . كرامة لك يا سيدي يا حسين ، يا ميت مظلوم في بلاد الغربة.. اللي يحب الشعب يضرب .. اللي يحب مصر يضرب ..

تدافعت موجات الزحام . كتل كثيفة . كثيفة . كقاع نهر دافىء. فصلت بيننا . أين أنا ؟ أين هو ؟ أين أي انسان ؟ بلا حذاء ونصفي الاعلى عار . أين برودة مقتل الليل ؟ وسط الزحام دافىء .. اجساد طرية وأخرى خشنة . زغاريد نسائية . أرداف وأثداء . أذرع خشنة مفتولة .. كرامة لك يا سيدي يا حسين يا ميت مظلوم في بلاد الغربة. دفء .. دفء .. أريد أن أنام .. أيد كثيرة تربت على رأسي .. وجه زوجتي . ابنتي تبتسم . تتسع بسمتها . رائحة عرق شتوي مختبىء .. أخيرا سأنام ..

وسط الزحام سأنام .

صلاح عيسى

معتقل طره السياسي ـ القاهرة ـ ١٧ مايو ١٩٧٠